فصل من رواية

الحياة هي في مكان آخر

بقلم ميلان كونديرا
ترجمة رنا إدريس

كان باستطاعة «كزافييه» أن يلمس بذراعيه الممدودتين، الحافات الداخلية للنافذة العالية المستطيلة التي قفز إليها. وكان بطوله يملأ النافذة تماماً. وتفحّص الغرفة من الخلف (كما يفعل الذين يركزون انتباههم على الأشياء البعيدة) فرأى أولاً باباً في المؤخرة، ثم خزانة منتفخة على الحائط الشمالي، وإلى اليمين سريراً خشبياً ركائزه متقنة، وفي وسط الغرفة، طاولة مستديرة وُضع عليها غطاء مصنوع من نسيج صنّارة ومزهرية بورودها. وأخيراً رأى حقيبته عند قدميه، مبعثرة على أطراف سجادة رخيصة.

وفي اللحظة التي رأى فيها الحقيبة وأراد أن يقفز ليلتقطها، فُتح باب الغرفة المظلمة الخلفي وظهرت المرأة. رأته على الفور. وبالفعل كان الظل يغمر الغرفة فيما كان مستطيل النافذة منوراً، كما لو أن الليل هبط إلى الداخل وأشرق النهار في الجانب الآخر. وإذا نظرنا من حيث تقف المرأة، لبدا الرجل الذي كان واقفاً في إطار النافذة شبحاً أسود يخلفه نور ذهبي اللون. كان رجلاً بين النهار والليل.

وفيما كانت المرأة التي بهرها النور لا تستطيع أن تميّز ملامح الرجل، كان «كزافييه» يتميّز عنها قليلاً. وكان نظره قد اعتاد الظلام ويستطيع على الأقل أن يرى نعومة ملامح المرأة وكآبة وجهها الذي كان شحوبه يشع نوراً، حتى في الظل الأكثر حلكة. بقي واقفاً أمام الباب وأخذت تتفحصّه. لم تكن من التيقّظبحيث تستطيع أن تعبّر بصوت عال عن فزعها، ولا التحكم بنفسها بحيث تستطيع أن تكلّمه.

وبعد ثوانٍ طويلة تأمل كل منهما فيها وجه الآخر ذا الملامح المبهمة، تكلّم «كزافييه».

قال: حقيبتي هنا.

سألت: «حقيبتك؟». وكأن جهورية كلمات «كزافييه» كانت قد أخرجتها من فزعها الأولي، فأغلقت الباب خلفها.

قرفص «كزافييه» على حافة النافذة وأشار باصبعه، فوقه، إلى المكان الذي تبعثرت فيه حقيبته. لديّ أشياء هامّة جداً داخلها دفتر الرياضيات وكتاب العلوم وكذلك الدفتر الذي ننقل عليه فروض الإنشاء التشيكوسلوفاكي. في هذا الدفتر، كتبت آخر إنشاء لي عن موضوع «قدوم الربيع». عانيت في هذه الكتابة كثيراً ولا أرغب في إخراجها من دماغي من جديد.

تقدّمت المرأة بضع خطوات داخل الغرفة، وكان «كزافييه» يراها الآن في النور الساطع. كانت ملاحظته الأولى صحيحة: نعومة وكآبة. رأي عينين كبيرتين سائلتين على وجه مرتبك،

وخطرت له كلمة أخرى: الرعب. لم يكن رعباً سبّبه مجيئه المفاجيء، بل رعب قديم كان قد بقي على وجه المرأة بشكل عينين كبيرتين سائلتين، بشكل شحوب، وبشكل حركات كانت من خلالها تعتذر باستمرار.

نعم، كانت هذه المرأة تعتذر حقاً! وقالت: «اعتذر منك، لكني لا أفهم كيف وصلت حقيبتك إلى منزلنا. لقد نظفت البيت منذ زمن قصير ولم أجد شيئاً لا نملكه نحن».

قال «كزافييه» المقرفص على حافة النافذة مشيراً بأصبعه إلى السجادة: ومع هذا، ولسروري العظيم، وجدت حقيبتي هنا.

قالت المرأة: «أنا أيضاً سُررت جداً لأنك وجدت الحقيبة». وابتسمت.

كانا الآن واقفين وجهاً لوجه. ولم تكن بينهما سوى الطاولة بغطائها المصنوع من نسيج صنّارة وعليها مزهرية مملوءة بالورود الورقيّة.

قال «كزافييه»: أجل، كنت سأكون منزعجاً لو لم أجدها. فيكرهني أستاذ اللغة التشيكوسلوفاكية. ولو كنت قد أضعت دفتر اللغة هذا، لكنت على وشك أن أطرد.

كان وجه المرأة يعبّر عن التعاطف، وكبرت عيناها فجأة إلى حدّ أن «كزافييه» لم يعد يرى سواهما، وكأن بقية الوجه والجسد كانت ترافقهما وتكملهما بل إنه كان لا يعلم كيف كانت ملامح وجه المرأة المختلفة ومقاييس جسدها. كان كلّ هذا قد بقي على حافة شبكيّة العين. ولم يكن تأثير المرأة عليه في الحقيقة سوى تأثير عينيها الكبيرتين اللتين كان لونهما البنّي يغمر بقية جسدها بأكمله.

كان «كزافييه» يقترب إذن من هاتين العينين، محيطاً بدائرة الطاولة. وقال ممسكاً المرأة من كتفها (آه كم كانت ناعمة هذه الكتفُ، كأنّها نهد!): «صدقيني، أنا عجوز، أرجوك أن تصدّقيني، ليس هناك من حزن أكبر من أن يجد المرء نفسه، بعد مرور سنة كاملة، في الصفّ نفسه، وأن يجلس على المقعد نفسه...».

ثمّ رأى العينين البنّيتين ترتفعان إليه فاجتاحته موجة من السعادة. كان «كزافييه» يعلم أنه كان باستطاعته الآن أن يزلق يده أكثر وأن يلمس النهد والبطن وما يريده، لأن الرعب الذي كان يطغى على هذه المرأة جعلها تستسلم بين ذراعيه. لكنه لم يقم بشيء. كانت يده تمسك كتفها، قمة الجسد المستديرة هذه. كان يكتفي بجمال الكتف وعظمتها. لم يكن يريد أكثر من ذلك.

بقيا دون حراك بضع دقائق ثم بدت المرأة متيقّظة: «عليك أن ترحل. لقد عاد زوجي!».

لم يكن هناك شيء أسهل من أن يأخذ حقيبته ويقفز عن حافة النافذة ومن ثم على الجسر. لكن «كزافييه» لم يتحرك. كان يحس بشعور شهيّ يستولي عليه، شعور بأن المرأة كانت في خطر وأنه يتوجب عليه أن يبقى إلى جانبها. «لا أستطيعُ أن أتركك وحدك هنا!».

توسّلت إليه بجزع: إنه زوجي! ارحل!.

قال «كزافييه»، فيما كانت الخطواتُ تدوي بوضوح على السلّم: «لا! أريد أن أبقى معك! لست جباناً!».

حاولت المرأة أن تبعد «كزافييه» باتجاه النافذة، لكنه كان يعلم أنه لا يحق له أن يهجر هذه المرأة في الوقت الذي كان خطر يهددها. وسُمِعَ صوت باب يفتح في مؤخر الشقّة. وفي اللحظة الأخيرة، ألقى «كزافييه» بنفسه أرضاً واختبأ تحت السرير.

كانت المساحة بين الأرض الخشبية وقاعدة السرير المؤلّفة من خمسة ألواح تسند الفرشة لا تتجاوز قط مساحة أيّ قبر، لكنها على خلاف القبر، كانت مساحة معطّرة (بسبب رائحة التبن الزكيّة) ورنّانة جداً (فقد كانت الأرض الخشبية تذيع بوضوح ضجيج الخطوات) ومليئة بالأحلام (كان يتخيّل، فوقه، وجه المرأة، ويعلم أنه كان لا يجوز له أن يهجر هذا الوجه في هذه الفترة، هذا الوجه المنعكس على قماش الفراش القاتم اللون، هذا الوجه الذي اخترقته ثلاث قذاذات قش تتجاوز قماش الفرشة).

وكانت الخطوات التي سمعها ثقيلة. وعندما أدار رأسه، رأى على الأرض الخشبية جزمتين تتقدّمان في الغرفة. وسمع صوت المرأة، ولم يقو إلاّ على الإحساس بندم غامض وإن كان مؤلماً: كان هذا الصوت كئيباً، خائفاً وجذّاباً، بالمقارنة لما كان عليه عندما كانت تتوجّه إلى «كزافييه». لكن «كزافييه» كان

متعقّلاً وسيطر على نزوة الغيرة الفجائية هذه. وكان قد فهم أن هذه المرأة كانت تتعرض للخطر وتدافع عن نفسها بكل ما تملكه من وسائل: وجهها وحزنها.

ثم سمع صوتاً ذكورياً وفكّر بأن هذا الصوت يشبه الحذائين السوداويين اللذين كانا يتقدمان على الأرض الخشبية. وسمع المرأة تقول: «لا، لا، لا». ثم سمع صوت الخطوات المزدوجة تقترب مُترنّحة من ملجأه، ثم انخفض السقف الذي كان «كزافييه» ممتداً تحته. وكاد أن يلمس وجهه.

ومن جديد سمع المرأة تقول: «لا، لا، لا، ليس الآن، أرجوك ليس الآن». وتراءى له وجهها على بعد سنتمتر من عينيه، على قماش الفرشة الغليظة، واعتقد أن هذا الوجه كان يبوح لكزافييه بإذلاله.

كان يريد أن ينهض من قبره. كان يريد أن ينقذ تلك المرأة، لكنه كان يعلم أنه لا يحقّ له القيام بمثل هذا العمل. وكان وجه المرأة قريباً من وجهه إلى حد كبير ينحني إليه ويتوسّل له. وكان هذا الوجه ينتفش بالقذاذات الثلاث كأنها ثلاثة أسهم تخترقه. وأخذت قاعدة السرير فوق رأس كزافييه تتأرجح بانتظام، وكانت القذاذات، أو الأسهم الثلاثة التي كانت تخترق وجه المرأة، تلمس بطريقة منتظمة أنف «كزافييه» وتدغدغه، الأمر الذي جعله يعطس بغتة.

وتوقفت الحركة على الفور وثبت السرير ولم يعد يسمع حتى التنفّس، وأحسّ «كزافييه» هو الآخر بالشلل. وبعد لحظات سمعت كلمات: «ما كان هذا؟» أجاب صوت المرأة: «لم أسمع شيئاً، يا حبيبي». مضت بعض لحظات من الصمت وسأل الصوت الذكوري: «ولمن هذه الحقيبة؟». ثم دوت خطوات رنّانة في الغرفة. وكان حذاء ينتقل على الأرض الخشبية.

وفكّر «كزافييه»: عجباً! لقد دخل الرجل في السرير بحذائه». وأدرك أنه حان الوقت ليتصرّف. فاستند إلى كوعيه وأخرج رأسه من تحت السرير ليرى ما الذي كان يدور في الغرفة.

كان الصوت الذكوري يصرخ: «من عندك هنا؟ أين أخبأته؟»، وكان «كزافييه» يرى الحذاء الأسود يعلوه بنطلون أزرق وقميص شرطي أزرق غامق. تفحّص الرجل الغرفة بنظرة مُحقّقة ثم انطلق نحو الخزانة التي يتكهن المرء، بسبب عمقها، بأن عشيقاً ما قد يكون مختبئاً داخلها.

وفي تلك اللحظة، انبرى «كزافييه» من تحت السرير، صموتاً كقطّ، رشيقاً كفهد. فتح صاحب اللباس الشرطي الخزانة المليئة بالملابس وأخذ يبحث متلمّساً داخلها. لكن «كزافييه» كان هنا، وعندما غاص الرجل في ظلمات الملابس بحثاً عن العشيق المختبىء، التقطه «كزافييه» من عنقه ودفعه بعنف داخل الخزانة. ثم أغلق بابها وأقفلها بالمفتاح. وأخرج المفتاح ودسّه في جيبه والتفت نحو المرأة.

* * * *

كان أمام العينين البنّيّتين، وكان يسمع وراءه الضربات من داخل الخزانة. وقد أضعفت الملابس الضجّة والصرخات إلى حدّ كبير، بحيث أن الكلمات كانت تظلّ غير مفهومة وسط الصخب.

جلس بالقرب من العينين الكبيرتين وضغط على الكتف بين أصابعه. وعندما لمست راحة يده الجلد العاري، فهم أن المرأة كانت لا ترتدي سوى قميص داخلي رقيق ينتصب تحته نهدان عاريان طريان ورشيقان.

في الخزانة، لم تكن ضربات الطبل تتوقف، وكان «كزافييه» الآن يمسك بيديه الاثنتين كتفي المرأة ويجهد لرؤية حدود قامتها التي كانت تتلاشى في جزالة العينين. كانت يقول لها أن لا تخاف، ويُريها المفتاح ليثبت لها أن الخزانة كانت مقفلة جيداً. وكان يذكرها بأن سجن زوجها من خشب السنديان وأن السجين لم يكن يقوى على فتحه أو خلعه. ثم أخذ يقبّلها (كانت يداه لا تزالان على الكتفين العاريتين الطريتين اللتين بلغتا من الاهتياج بحيث كان يخشى أن يمرّر يديه ليلمس النهدين، كأنه كان لا يملك القوة الكافية لمقاومة نشوتهما). وفكّر ثانية أنه، بعد أن وضع شفتيه على هذا الوجه، سيغرق في مياه غزيرة.

سمع صوتها: ماذا سنفعل؟

داعب كتفيها، وأجابها بأن لا تهتمّ بشيء، وأنهما سعيدان كثيراً في الوقت الحاضر، وأن سعادته كانت أكبر من أي وقت

مضى. . . وإن ضربات الخزانة لم تكن تقلقه أكثر من صوت عاصفة ينبعث من أسطوانة حالكٍ أو عواء كلب مقيّد إلى حجرته في الطرف الآخر من المدينة.

ولكي يبرهن لها أنه كان يسيطر كلياً على الموقف، نهض وأخذ يتفحّص الغرفة. ثم ضحك لأنه كان قد شاهد مطرقة سوداء وُضعت على الطاولة. فتناولها واقترب من الخزانة وأخذ يجيب على الطرقات الصادرة من الخزانة بلطمات المطرقة على بابها.

سألت المرأة من جديد: «ماذا سنفعل؟» فأجابها «كزافييه»: «سنرحل». سألت المرأة: «وماذا نفعل به؟» وأجابها «كزافييه»: «يمكن للمرء أن يبقى على قيد الحياة اسبوعين أو ثلاثة دون طعام. عندما نعود هنا في العام المقبل، سنجد في الخزانة هيكلاً عظمياً مرتدياً لباساً عسكرياً ومنتعلاً حذاء». ثم اقترب من الخزانة ولطمها بالمطرقة وضحك. ثم نظر إلى المرأة آملاً أن تضحك معه.

لكن المرأة لم تكن تضحك وسألت: «أين سنرحل؟».

شرح لها «كزافييه» أين سيرحلان. أجابت أنها في هذه الغرفة كانت في منزلها، بينما لم يكن لها في المكان الذي سيقودها «كزافييه» إليه، خزانة لملابسها وعصفور في قفصها. فأجاب «كزافييه» أن المنزل ليس عبارة عن خزانة ملابس أو عصفور في قفص، بل وجود الشخص الذي نحبّه. ثم قال لها إنه هو نفسه لا يملك منزلاً، أو بعبارة أخرى، أن منزله كان في خطواته، في مشيته، في أسفاره. كان منزله هناك حيث تنفتح منها آفاق مجهولة. قال لها إنه كان لا يستطيع العيش إلا عندما يتنقّل من حلم إلى آخر، من مشهد إلى آخر وأنه لو كان ليبقى مطولاً في محيط واحد، لمات كما سيموت زوجها إن بقي أكثر من خمسة عشر يوماً داخل الخزانة.

وعندما أنهى كلامه، لاحظ الإثنان معاً أن الخزانة سكتت فجأة. كان هذا الصمت لافتاً للانتباه بحيث أيقظهما معاً. كان كاللحظة التي تلي العاصفة. وكان العصفور يزقزق بأعلى صوته داخل قفصه، وعند النافذة كان لون الشمس الأصفر يغرب. وكان المشهد جميلاً كدعوة للسفر. كان جميلاً كالعفو العظيم. كان جميلاً كموت شرطيّ.

هذه المرة، داعبت المرأة وجه «كزافييه». كانت تلمسه للمرة الأولى. وكانت كذلك المرة الأولى التي يراها فيها كزافييه بملامحها الثابتة، لا متراخية، وقالت له: نعم، سنرحل، وسنذهب أينما تشاء. انتظر دقيقة واحدة، سأحضر فقط بعض الحاجات للسفر».

داعبت وجهه مرة ثانية وابتسمت له، واتجهت نحو الباب. كان ينظر إليها وقد امتلأت عيناه بهدوء مفاجيء. كان يرى خطوتها، رشيقة ومنتظمة كخطوة الماء الذي يتحوّل إلى جسد.

ثم جلس على السرير وشعر بسعادة رائعة. كانت الخزانة صامتة، وكأن الرجل قد نام داخلها أو شُنق. كان الصمت قد امتلأ بمساحة دخلت إلى الغرفة من النافذة، مصطحبة ضجيج «الفلاتا» وصراخ المدينة البعيد، صراخاً كان، لشدّة بعده، يشبه أصوات الغابة.

كان «كزافييه» يشعر بأنه ممتلىء، مرة أخرى، بالأسفار. ليس هناك أروع من اللحظة التي تسبق السفر، تلك اللحظة التي تزورنا فيها آفاق الغد وتقول لنا وعوده. كان «كزافييه» متمدداً على الأغطية المدعوكة وكان كل شيء يبدو وكأنه يذوب في وحدة مدهشة: السرير الطريّ الشبيه بامرأة، والمرأة الشبيهة بالماء، والماء الذي كان يتخيله تحت النوافذ شبيهاً بطبقة سائلة.

ثم رأى الباب ينفتح والمرأة تدخل. كانت ترتدي فستاناً أزرق، أزرق كالماء، أزرق كالآفاق التي سيغوص فيها غداً، أزرق كالنوم الذي كان يغرق فيه ببطء، ولكن على نحوٍ لا يقاوَم.

نعم، كان «كزافييه» قد نام.